٢ ـ أبو العيناء

بقلم محمود محمود خليل

تحدثت فى مقالى السابق عن إسراف أبى العيناء فى هجاء الناس ، حتى لم يسلم منه أحد من عظيم أو سوقة ، وقلت إن هناك عوامل أثرت فى حياته ، حتى جعلته سليط اللسان وقد آن أن أتحدث عن تلك العوامل :

(١) الوراثة وقد تعرضت لها فيما سبق بحديث مستفيض ، فلا حاجة بى الآن إلى تكرار القول فيها

(٢) نشأته فقيراً ، وطالما كان الفقر وهو مثير الأضغان والأحزان منبعاً للنبوغ والذكاء ، ونجد فقره هذا اضطره فيما بعد إلى الارتحال من منبت نشأته وهو البصرة إلى بغداد طلباً لعطايا الخلفاء والوزراء ، وكل أحاديثه مع الكبراء تنبئنا بفقره المدقع ، فقد دخل مرة على عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير فضمه إليه ، فقال له أنا إلى ضم الكفاية أحوج منى إلى ضم اليدين . وقال له مرة أنا معك منبوط الظاهر موجود الباطن كما قال أبو الطيب المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها إنى بما أنا باك منه محسود

وقال لعبيد الله بن يحيى : مسّنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا الحمد والشكر ، وأنت لا يخيب عنده حر

وسواء كان هذا الكلام منه من أساليب الاستجداء الذى اشتهر به أو من شدة الحاجة كما يقول ، فقد عاش أبو العيناء فى حياته كلها سواء منها المدة التى قضاها فى البصرة أو المدة التى عاشها فى بغداد فى ضنك من العيش وشدة ، وتلك حياة كثير من الأدباء والكتاب فى عصره ، حتى كان الانتساب إلى الأدب طالع سوء على محترفيه ، اللهم إلا نفراً قليلاً من الأدباء الذين أتاح لهم القدر أن يصلوا إلى مرتبة الوزارة أو القضاء ، وغفلت عنهم عين الزمان كما يقولون ، كالفضل بن سهل وأخيه الحسن والفضل بن الربيع وابن الزيات ويحيى بن أكثم وأحمد ابن أبى دؤاد وغيرهم ، وما عدا هؤلاء فكانت حياتهم تتوقف على العطايا التى ينفحهم بها أرباب المناصب فى الدولة ؛ وكثيراً ما كانت تضيق أمامهم سبل العيش ، وتضطرهم الفاقة إلى الاستكانة والذلة ، ولا سيما إذا راعينا رجلاً كأبى العيناء وهو مكفوف البصر ، رثينا لحاله التى كان فيها ، وانتحلنا له عذراً فى استطالته بلسانه على الكبراء ، فانه لا يملك غيره ، وهو سيفه الوحيد الذى كان يناضل به فى حياته عن عيش الكفاف الذى كان يبتغيه فى دنياه كما يقول ذلك لعبيد الله بن سليمان

(٣) وثالث العوامل التى غيرت مجرى حياته فقد بصره ، ولم يحدثنا الرواة أحصل له ذلك الحادث فى حياته البصرية أم فى حياته البغدادية ، وإنى أرجح أن ذلك كان فى حياته البصرية قبل أن ينتقل إلى بغداد ، فان أحاديثه جميعها التى نقلت عنه وهو ببغداد تنبئنا أنه كان أعمى يقوده غلامه

ويظهر أن هذا الحادث قد أثر فيه تأثيراً كبيراً فجعله ساخطاً على الحياة ، يتناول الناس بقوارص الكلم . قال له المتوكل : لا تكثر الوقيعة فى الناس ، قال : إن لى فى بصرى لشغلاً عن الوقيعة فيهم ، قال ذلك أشد لحيفك فى أهل العافية . فانظر إلى حيفه فى أهل العافية الذى يذكره له المتوكل ، أما كان هذا أثراً من آثار فقد بصره ؟ وشكا مرة إلى صديق له سوء الحال وفقد البصر ، فقال له اشكر فان الله قد رزقك الاسلام والعافية . قال : أجل ولكن بينهما جوعا يقلق الكبد ، ويفقد الرشد

لم يتخذ أبو العيناء سخطه على الحياة مذهباً فلسفياً له كما اتخذه شاعر المعرة من بعده ، ولم يؤد به هذا السخط إلى الزهد والتقشف كما فعل ذلك أبو العلاء ، وإنما كان سخطه مقصوراً على حزنه العميق الذى خالج فؤاده لفقد بصره

صفاته وأدوار حياته :

إذا فقد اجتمعت عوامل ثلاثة أثرت فى حياته : الوراثة والفقر وفقد البصر ، حتى جعلته سليط اللسان حاضر البديهة متوقد

الذكاء ؛ ولقد تزود فى حياته البصرية من آثار الوسط الذى كان يعيش فيه بما يصلح لمجالس الملوك والأمراء ومنادمتهم بأحاديث وطرف ونوادر ، ثم رحل إلى بغداد بعد أن ضاقت به سبل العيش فى البصرة ؛ ولقد ذمها للمتوكل حينما سأله عنها فقال : من أين أنت ؟ قال من البصرة . قال له : فما تقول فيها ؟ قال : ماؤها أجاج ، وحرها عذاب ، وتطيب فى الوقت الذى تطيب فيه جهنم

تزود بتلك الرواية الواسعة واشتهر مع هذا بالجواب المسكت والمراسلات العجيبة والجواب السريع والطبع الفكه والحجة الداحضة ، والبديهة المتوقدة . فكانت تلك المظاهر معينة له على الحياة التى أقدم عليها ببغداد . فمن ذلك أن بعض الرؤساء قال له : يا أبا العيناء ، لومت لرقص الناس طرباً وسروراً ؛ فقال بديهةً :

أردتَ مذمتى فأجدت مدحى ... بحمد الله ذلك لا بحمدك
فلا لك واثقاً أبداً بعمد ... فقد يأتى القضاء بغير عمدك

ثم قال : أجل . الناس قد ذهبوا فلو رآنى الموتى لطربوا لدخول مثلى عليهم ، وحلول عقلى لديهم ، ووصول فضلى إليهم ، فما زال الموتى يغبطونكم ويرحمونني بكم . وخاصم أبو العيناء يوماً علوياً فقال له العلوى : تخاصمنى وأنت تقول كل يوم : اللهم صل على محمد وآل محمد ! قال لكنى أقول الطيبين الطاهرين ولست منهم . ووقف عليه يوماً رجل من العامة فلما أحس به قال من هذا ؟ قال رجل من بنى آدم ، فقال مرحباً بك ! أطال الله بقاءك ، ما كنت أظن هذا النسل إلا قد انقطع . ولقيه بعض أصحابه فى السحر بفعل يتعجب من بكوره ، فقال له : أراك تشركنى فى الفعل وتفردنى فى التعجب ! وقال له المتوكل : إبراهيم بن نوح النصرانى واجد عليك . فقال : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قال إن جماعة من الكتاب يلومونك . فقال : —

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى ... فلا زال غضباناً على لئامها

وغير هذه الأحاديث كثير تستطيع أن تقرأها فى كتب الأدب . وتلك البديهة الوقادة والأجوبة المسكتة هى التى جعلت الحصرى صاحب زهر الآداب يقول : كان أبو العيناء أحدّ الناس خاطراً وأحضرهم نادرة ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً .

ولقد كان أبو العيناء يجالس فى حياته البغدادية الخلفاء والكبراء فيطرفهم بأحاديثه وفكاهاته ، فكان سلوة لهم فى مجالسهم وزينة فى محاضرهم على ما فيه من حدة اللسان

انتقل أبو العيناء إذاً من البصرة إلى بغداد بعد أن تمت له الثقافة التى أرادها ، والبلاغة الكاظية التى امتاز بها ، وتلك حال كان يشترك معه فيها كثير من أدباء عصره ، إذ كانت بغداد مركز الخلافة الاسلامية يرحل إليها الأدباء والعلماء ، ويبتغون فيها صلات الملوك والأمراء ، وقد يصل بعضهم إلى أن يرتب له الخليفة من بيت المال رزقا يجرى عليه . ويظهر أن أبا العيناء كان من أولئك النفر كما تدل عليه أحاديثه ولا سيما إذا لاحظنا أنه من موالى الخلفاء العباسيين ، فكان بلا ريب له دالة عليهم جعلته فى مأمن من تلك الحزازات التى كانت فى صدور كثير من الحاشية ، والتى سببها أبو العيناء ببذاءة لسانه ، وتطاوله على أعراض الناس

حياته البغدادية :

يقول الرواة إن أبا العيناء ولد فى آخر المائة الثانية وتوفى سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ فمن ثم يكون قد أظلته خلافة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد وصدر من خلافة المعتضد بالله الذى تولى سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٢٨٩ هـ . ولقد كانت الحياة البغدادية فى عصر أبى العيناء كلها ترف ولذة ، يسودها المجون والخلاعة ، ويروج فيها العبث واللهو ، وقد روى لنا المؤلفون كثيراً من مجالس لهوهم ومنادمتهم على الشراب ، ومساجلات الشعراء فى خلواتهم ، وأحاديث المجان فى طربهم ، وإنى أعتقد أن الخليفة الذى تمتع بملذات الحياة ، وأنال نفسه ما تبتغيها حقاً ، من خلفاء العباسيين هو المتوكل على الله ، فهو أول من أظهر من خلفاء بنى العباس الانهماك على شهوته ، فأسرف فى بناء القصور ، وعكف على الشراب ولم يبال باللوم [1] ، ولقد جنى ثمرة رفاهية الدولة ، وإن شئت فقل إن الدولة قد بلغت فى أيامه ذروة العظمة ، وكان لا بد لها من بعده أن تضعف حتى تنمحى ، ولكل شىء إذا ما تم نقصان . ولقد

(١) نعتقد أن الأمين لم يتمتع حقاً للخلاف الذى كان بينه وبين أخيه المأمون

حدثنا التاريخ أنه قتل فى قصره ، وأن الأمور من بعده اضطربت اضطراباً شـديداً بسبب المول الهادم الذى أوجده المعتصم وهو الجنود الأتراك ، ولم يظهر استبدادهم وشرهم حتى بلغت الأمور غايتها ثم ظهر الفساد بعد عصر المتوكل

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصالاً شديداً ، وسنعلم إلى أى حد أثر فيه هذا الاتصال ، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل وإنما اتصل بغيره كما اتصل به ، ولـكن المتوكل هو الذى رفع له الحجاب ، وجعل يصغى لأحاديثه ، ولقد بهره منه تلك البديهة الحاضرة ، وذاك الذكاء الوقاد ، حتى رأيناه يمزح معه فى كثير من مجالسه ، ويرفع الـكلفة بينه وبينه

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة فاتصل به وعرف وزيره الحسن بن سهل وأخذ منهما الصلات والعطايا ، ولقد أثر ذلك المعروف فى نفسه حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل : والله لئن أتعب المادحين ، لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أصيب بموته الأنام ، وخرست لفقده الأقلام . وخبر آخر قال أبو العيناء : حصلت لى ضيقة شديدة فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم فقال إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص فهل لك فى الحضور ؟ قلت نعم ومضيت معه ، فلما دخلنا أجلسه وأجلسنى ثم قال يا أبا العيناء بالألفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم ... وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم أكن لى أسباب أعيش بها ... ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال لغلامه : أنظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ، فقال بقية من مال ، قال فادفع له منها مائة ألف وابعث له بمثلها فى كل شهر . فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ، فقال له بعض أولاده يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء . فقال :

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عينـاى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

(يتبع)

محمود محمود غنيم

٥٠٤٠

سوقية لم تنشر

مراقب الصحف بالآستانة

للمغفور له أحمد شوقى بك

لنا رقيب كان ما أثقله ... الحمد لله الذى رحّله
لو ابتلى الله به عاشقاً ... مات به لا بالجوى والولَه
لو دام للصحف ودامت له ... لم تنج منه الصحف المُنزله
إذا رأى الباطل غالى به ... وإن بدا الحق له أبطله
لو خال « بسم الله » فى مصحف ... تغضب «تحسيناً[1]» محا البسمله
وعزة الله بلا « عزت[2] » ... لا تنفع القارى ولا خردله
جرائد الترك على عهده ... كانت بلا شأن ولا منزله
إن تذكر الخنجر لفظاً تُصِبْ ... من شدة الذعر به مقتله
وإن تصف قنبلة لم ينم ... من هول ذكرى حادث القنبله
الشر بالشر نيا قوم لا ... إثم إذا راقبتمو منزله
فحاصروا الأبواب واستوقفوا ... من أخرج الزاد ومن أدخله
إن كان فى السلة تفاحة ... ضموا له موضعها حنظله
أو جبنٌ « بالشرشر[3] » له ... قاملأوا مكانها من علقم جرده
أو اشتهى الأبيض من ملبس ... قولوا له الأسود ما أجمله
ذلك يا قوم جزاء امرئ ... كم غيّر الحق وكم بدّله

(١) تحسين باشا من ذوى النفوذ
(٢) عزت باشا » » »
(٣) عين معدنية سياهها حلوة صحية

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد للخارج ١٥ قرشاً